اوائل طارس ١٨٧٧

الجزء العاشر من السنة الاولى

العلوم الطبيعية والنصوص الشرعية

لما اطّلع صاحب السعادة والاقبال حضرة رياض باشا الافخم وزير المعارف في بلاد مصر على الرسالة المدرجة في الجزء الثامن في ثبوت الارض قال لوكيلنا كيانس افندي فيليبيدس ان هذا الراي مغلوط وفاسد دينًا وعلمًا ثم تكرّم برسالة من قلم وكيل سعادته في نظارة المعارف العالم الشهير والاديب الخطير سعادة عبد الله بك فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية ولما اجتلينا الطرف في رياضها الحسان رأينا فيها ما يدهش الالباب من المنطق وحسن البيان فبادرنا الى اقتطاف بعض ثمارها اظهارًا لموافقة علم الهيئة لدين المسلمين واجابةً لما طلبهُ منا كثيرون

قال المؤلف من كلام بليغ مثبتًا فيهِ ان الارض كرة ما نصهُ "قال الامام حجة الاسلام الغزالي في كتاب تهافت الفلاسفة ما نصهُ . القسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم (يعني الفلاسفة) فيهِ اصلاً من اصول الدين وليس من ضرورة تصديق الانبياء والرسل منازعتهم فيهِ كقولهم ان خسوف القمر عبارة عن انحاء ضوء القمر بتوسط الارض بينهُ وبين الشمس من حيث انهُ يقتبس نورهُ من الشمس وان الارض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنهُ نور الشمس وكقولهم ان كسوف الشمس معناهُ وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة . وهذا الفن ايضًا لسنا نخوض في ابطالهِ اذ لا يتعلق بهِ غرض ومَن ظن المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف امرهُ فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويحقق ادلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدّة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل لهُ هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيهِ وانما يسترب في الشرع وضرر الشيء ممّن ينصرهُ لا بطريقهِ اكثر من ضررهِ ممّن يطعن فيهِ بطريقهِ . وهو كما قيل عدوّ عاقل خير من صديق جاهل . فان قيل فقد قال عليهِ الصلاة والسلام ان الشمس والقمر لآيتان من آيات الله عز وجل لا تنكسفان لموت احد ولا لحياتهِ فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله تعالى والصلاة فكيف يلائم هذا ما قالوهُ . قلنا ليس فيهِ الا نفي وقوع الكسوف لموت احد ولا لحياتهِ والامر بالصلاة عندهُ والشرع الذي يامر بالصلاة عند الزوال والطلوع والغروب من اين يبعد منهُ ان يامر بها عند الكسوف استحبابًا . فان قيل فقد روي انهُ قال في آخر الحديث ولكن الله اذا تجلى لشيء خضع لهُ فيدل على ان

الخسوف خضوع بسبب التخيلي قلنا هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب ناقلها وانما المروي ماذكرناهُ كيف ولوكان صحيحًا لكان تاويله اهون من مكابرة امور قطعية فكم من ظواهر اوّلت بالادلة القطعية لاتنتهي في الوضوح الى هذا الحد .واعظم ما يفرح المحدة ان يُصرّح ناصر الشرع بان هذا وامثاله على خلاف الشرع فيسهل عليهِ طريق ابطال الشرع ان كان شرطه امثال ذلك وهذا لان البحث في العالم عن كونهِ حديثًا اوقديمًا ثم اذا ثبت حدوثهُ فسواء كان كرة بسيطًا اومثمنًا او مسدسًا وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوهُ او اقل او اكثر فنسبة النظر فيهِ الى البحث كنسبة النظر الى طبقات البصل وعددها وعدد حبات الرمان فالمقصود كونهُ من فعل الله فقط كيف كان . انتهى كلام الامام حجة الاسلام الغزالي بنصهِ وهو من الوضوح والظهور والاستيفاء في الغاية والنهاية

هذا وقد ذهب اناس الى القول بالهيئة الجديدة اعني ما وقع عليهِ اختيار اهل الهيئة في هذه الاعصار الاخيرة وان كان قديمًا معهودًا عند السلف كالقول بان الارض تدور حول الشمس وان هذا المرئي الذي نسميهِ سماء او فلكًا هو فضاء واسع وزرقتهُ من اكتناف الاشعة الشمسية للاجزاء الارضية واشباه ذلك وقالوا بتاويل ما ورد ذلك من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وحملها على ما يوافق ما ذهبوا اليهِ فزعموا ان السموات في نحو قولهِ تعالى الذي خلق سبع سموات طباقًا عن دوائر الشموس وذلك انهم سموا كل كوكب ثابت شمسًا وقالوا ان لكل واحدة من هذه الشموس دائرة وعدّة متعلقات كثيرة تدور حولها من السيارة والملتزمات وذوات الذوائب وكل واحد من هذه المتعلقات عالم مثل كرة ارضنا ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وعدّة متعلقات تدور حولها من السيارات والملتزمات ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الارض التي نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض الى حيث لا يحيط بهِ النظر ولا تدركهُ الفكر وما يعلم جنود ربك الاّ هو." الى ان يقول "» وفي كتاب اسرار الملكوت وشرحهِ الموسوم بافكار الجبروت طرف من تاويلاتهم وآرائهم ودلائلهم والاعتراضات التي اوردت على مذهبهم وما اجابوا بهِ عنها والشرح المذكور مطبوع في القسطنطينية دار السلطنة السنية وهو باللغة التركية ومتنهُ بالعربية وهاك حكاية مناظرة بين واحد منهم وصديق لهُ من الفقهاء

(قال الفقيه) لصاحب الهيئة اراك تقول الآن بهذه الهيئة الجديدة مع مخالفتها النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وقد كنت اعهدك على يقين في دينك وبصيرة في امرك فكيف اخترت لنفسك مفارقة الدين والخروج من دائرة المهتدين

(قال صاحب الهيئة) معاذ الله كيف تكفّر مَن يؤمن بالله ورسولهِ واليوم الاخر ويعتقد ان جميع ما سوى الله تعالى على اي حالةٍ كان سواء كانت الشمس مركزًا والارض تدور عليها او غير ذلك

حادث ومخلوق لله سبحانه وتعالى . واما ما ذكرت من مخالفة الهيئة الجديدة لنصوص الشرع فانا اذ تتبعت كلام القوم ورأيتهم قد قرروا شيئاً من قواعدهم على خلاف المشهور من الهيئة القديمة ثم اثبتوا شيئاً مما يدعونه بدلائل قطعية او قواعد حسابية او امور بصرية لا يمكن مقاومتها ولا تحسن مكابرتها ثم رجعت الى ما يتعلق بالهيئة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فوجدت الفاظها لا تابى ان تؤوّل بما يوافق تلك الادلة القطعية ورأيت علماء السنة رضي الله عنهم قد تأولوا كثيراً من الظواهر لمثل ذلك ونظرت الى ما قررهُ الامام حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنهُ في كتاب تهافت الفلاسفة من ان المصير الى التاويل اولى من مكابرة ما قام عليهِ الدليل ووجدت كثيراً من المفسرين حملوا بعض الظواهر على ما يوافق ما قيل في الهيئة القديمة والحال ان كلاً من ارباب الهيئة القديمة والجديدة بالنسبة الينا على حدٍ سواء فلا يجوز لي حينئذٍ التعويل على تاويل تلك الظواهر بما يوافق ما قامت عليهِ الادلة القطعية في الهيئة الجديدة ما نقلهُ كلماتها وتحملهُ عباراتها مع الاعتقاد الجازم بان جميع ما جاء في كتاب الله العظيم وصحّ عن رسولهِ الكريم حق وصدق لا ريب فيهِ ولا مرية وهو اعلم بحقيقتهِ واسرارهِ وباطنهِ وظاهرهِ

(قال الفقيه) فهل يمكن التوفيق بين النصوص الشرعية وما قيل في الهيئة الجديدة (قال) نعم بل كثير من الاوجه المذكورة في كتب التفسير المتداولة موافق لذلك غير محوج الى تاويل غيرهِ

(قال الفقيه) قد زعمتم ان هذا الذي نراهُ ازرق وتسميهِ سماء فضلاً فما معنى السماء اذاً في كتاب الله تعالى

(قال صاحب الهيئة) "هي دوائر الشموس بما فيها من الكواكب" * ثم بعد ان شرح آيات كثيرة وبيّن عدم مخالفتها لعلم الهيئة قال

(قال الفقيه) "لابد ان توجد نصوص تعارض ما نقولونهُ ولا نقبل من وجوه التاويل مثل ما تبدونهُ ولكن هذا ما حضرني الآن وخطر ببالي على الفور اذ لا يتيسر استحضار جميع ذلك جملة وسردهُ دفعةً فما الذي تصنعهُ اذا عارض مسألة من هذه الهيئة نص شرعي لا يمكنك تاويلهُ لعدم احتمالهِ

(قال صاحب الهيئة) لو اتيت بشيء مما تراهُ بهذه المثابة لكان لنا ان ننظر فيهِ ونتكلم عليهِ بحسب ما يقتضيهِ ولكن انا الآن اخبرك بما اراهُ في هذا الامر على سبيل الاجمال والعموم واكاشفك بما اذهب اليهِ واعتمدهُ واعوّل عليهِ واعتقدهُ فان رأيت اني اصبت شاكلة الصواب في ما ذهبت اليهِ كان لك الخيرة في ان توافقني عليهِ وان رأيت اني اخطأتُ الطريق واسأتُ الصنيع فدلني على ما تراهُ الصواب واحتسب على الله الثواب

فاقول اذا تعارضت مسالة فلكية ونص شرعي فهذه المسألة الفلكية بحسب القضية العقلية لا تخلو عن احد امرين اما ان تكون مثبتة بالدلائل القطعية ام لا فان كان الثاني اي كانت هذه المسألة

مذكورة في كلامهم دعوى من غير دليل ولا يقوم عليها برهان صحيح وحجة قاطعة فلا حاجة بنا حينئذٍ الى التاويل اذ لا ضرورة بنا الى تقليد كل ما قيل بدليل ومن غير دليل لمجرد كون قائله اثبت بعض ما قاله بدلائل قطعية وبراهين مسلمة لا تبقي معها شبهة فان عارضها شيء من الظواهر يقبل التاويل بما تطابقه المسألة ويحتمل الحمل على ما اثبتته الادلة قلنا بذلك التاويل وعلى الله قصد السبيل. واما ان عارض تلك المسألة القطعية بالفرض والتقدير والتسليم الجدلي نص شرعي لا نعلم له تاويلاً فوضنا علمه الى الله سبحانه وتعالى حتى يعلمنا تاويله ويعلمنا ان علم وقوفنا على تاويله انما جاء من قصور اذهاننا عن المضاء في فهمه والنفوذ معرفته فهذا الذي اختاره وارتضيه" اه. ونكتفي بهذا الضيق المقام قال الطغرائي

اعلل النفس بالامال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الامل
وانما رجل الدنيا واوحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجل

اللؤلؤ الصناعي

كان اللؤلؤ الصناعي يُصنع في بلاد مصر منذ ثلاثة آلاف سنة واكثر ثم ماتت صناعته كغيرها من صنائع القدماء وأحييت مؤخرًا في ايطاليا نحو سنة ١٢١٨ ولكنها لم تبلغ درجة الاتقان حتى سنة ١٥٢٨. حكى بعضهم ان مكتشف الطلاء الذي يطلى به خرز الزجاج الآن لكي يماثل اللؤلؤ رجل فرنساوي اسمه جكوين اكتشفه هكذا. كان جكوين هذا مشهورًا بعمل اللؤلؤ الكاذب وحصّل منه ثروة وافرة الاّ انه كان في قلق دائم لانه كان يدهن الخرز بمادّة زئبقية سامّة ليصير كاللؤلؤ. وكان له ابن وحيد خطب له فتاة تسمّى اورسُلاً. فزارتهم اورسُلاً ذات يوم مع نفر من قومها وبينما هم جلوس التفت اليها جكوين على انفراد وقال لها ستُرزقين على ابني بعد قليل ولودٌ ان اراك حينئذٍ مزينة بأثمن الحلى فاطلبي مني ما تريدين. فقالت يا ابتِ لقد فزت بسعادة الانضمام اليكم فاطلب منك عقدًا من عقود اللؤلؤ التي تصنع. فتقطب جكوين حصرًا وكللة العرق حيرةً وليث صامتًا مبهوتًا كمن أُصيب بصاعقة من السماء واما قومها فلم يعلموا ما دار بينهما من الحديث فاحبى جكوين ذلك الليل يفكر في اجابة طلب اورسلاً بوجه لا يكشف سرّ صناعته فينفضح امرهُ ولا يضرها بلباسها عقدًا سامًّا فمضى الليل ولم يفتح عليه فكر وخرج خارج البلد يتمشى على ضفة نهر السين غائصًا في بحار التأمّل وبعد ان سار ساعتين او اكثر حانت منه التفاتة الى النهر فاذا في الماء شيء يتلألأ كاللؤلؤ المنضد فدعا صيادًا واوعز اليه ان الق شبكتك ههنا فالقاها ولما اخرجها وجد فيها اسماكًا صغيرة بيضاء فاخذها واتى بها الى دكانه ونزع حراشفها وركّب منها طلاء وكان قد مضى النهار فتركها ورجع الى بيته ثم بكّر في الصباح